صورة المرأة في الأمثال الشعبية المستغانمية

د/ حيرش يغداد ليلى أمال، أستاذة محاضرة بجامعة عبد الحميد بن باديس –مستغانم –
د/إسعد فايزة زرهوني، أستاذة محاضرة بجامعة عبد الحميد بن باديس –مستغانم–

مقدمة:

لا يكاد يخلو بيت من البيوت العربية أو حتى الأجنبية من الأمثال المحفوظة في القلوب والمتوارثة بين الأجيال بصفتها جزء لا يتجزأ من تراثها الثقافي والتي تعكس واقع الحياة الإجتماعية المعاشة، تستعمل لإيصال أفكار معينة وتيسر ما يقصد من الكلام أو الفعل فبالمثل يتضح المقال .

والأمثال بقدر ما تكون ذلك الوعاء الذي تحفظ به الأمم أفكارها ومأثوراتها الشعبية وبقدر ما هي المرآة العاكسة لطبيعة تفكير هذه الشعوب والأمم، فهي أيضا تساهم بشكل كبير في تشكيل ما يصطلح على تسميته بثقافة المجتمع وفلسفته التي تنم عن كم التراكمات الإجتماعية، وعلى جملة من الأعراف والتقاليد المتداولة بين أفرادها " إن المثل فن قديم يصاغ إنطلاقا من تجارب وخبرات عميقة، تحمل تراث أجيال متلاحقة يتناقلها الناس شفاها أو كتابة، تعمل على توحيد الوجدان والطبائع والعادات لذلك يعدها البعض حكمة الشعوب و ينبوعها، وقد تقوم في هذا المجال بدور فعال في دفع عجلة المجتمع إلى الأمام بإتجاه التطور والبناء لذلك ينظر إليها بإعتبارها وثيقة تاريخية إجتماعية "[1] .

كثيرا ما تستعمل الأمثال في المحادثات كدليل على إستحضار الأشخاص لأهم ما قيل على موضوع المحادثة، وكسند ومرجعية توفر على المتحدث الجهد والوقت الذي يبدلهما لإيصال فكرته إلى المتلقي من جهة، وتعينه على إستدراك النقص الذي يمكن أن يزاوله إن خالته الكلمات للتعبير. فإختصارا لكل ذلك يتوجه المتحدث للمثل كممارسة إسترجاعية وإيحائية مستمدة من الماضي، ومحاولة إسقاطها على الوقت الحاضر للفهم والتعبير والإقناع. "إن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير مطابقا للعقل، وذلك النهاية في الإيضاح"[1]. فالأمثال بمميزاتها وخصائصها البسيطة جعلتها تحوز على الإنتشار العالمي، لأنها تعكس ثقافة المجتمعات ونشاطاتهم وسلوكياتهم وأساليب تفكيرهم، إلى جانب قدرتها على محاكاة واقع الأفراد والمجتمعات، والتعبير عنه بشكل لطيف وعميق ينم عن الحكمة البليغة، والخبرة الطويلة، كما أنها سريعو النفاذ إلى الفكر والعقل، ولا تنقضي بمجرد

موت الإنسان إنما تستمر من جيل لآخر ملخصة تجارب طويلة في كلمات بسيطة يفهمها العام والخاص، الكبير والصغير. ولكن بكثير من الحكمة والبلاغة بغرض الإستشهاد بها في موقف من مواقف الجدل والنقاش. "والمتحدث يلجأ إلى المثل الشعبي في كلامه إلى سببين رئيسيين: إقتصاد في الكلام وفي اللغة وفي وقت المحادثة، عجز عن قول شيئ صراحة ومباشرة وقد يكون العجز خوفا أو إحتراما أو مدحا أو ذما لم يستطع المتلفظ به علانية فيلجأ إلى الكناية وإلى التلميح"[3] فهذه الميزات التي تتمتع بها الأمثال جعلتها قريبة من حياة الناس ومن يومياتهم، كما جعلتها أيضا بعيدة عن سطوة الحكام وسيطرتهم، لعدم قدرتهم على منع إنتشارها أو الحد من إستمرارها وكثيرا ما تختلف مواضيع الأمثال الشعبية وتتنوع بتنوع الثقافات والأعراف والتقاليد وتمس مختلف جوانب الحياة الإجتماعية: كالحقوق والواجبات والمعاملات (على إختلاف أنواعها) والسلوكيات وغيرها والتي تختلف بطبيعة المواقف والأشخاص خاصة إذا تعلق الحديث بالمرأة، فالأمثال الموظفة لأجلها تتباين من أمثال دينية وأخلاقية إلى أمثال الأفراح والحكم والمواسم والعبر وغيرها. "فالبنية الفنية لأسلوب المثل تتنوع بتنوع المواقف أو الموضوعات المطروحة عن المرأة وهي تتراوح بين الوعظ والإرشاد والتحذير والترغيب والترهيب، مما جعلها تحتل عناية خاصة في الوسط الإجتماعي" [4].

وحتى يتسنى تقديم هذه الأمثال قمنا بتبويبها حسب محاور تيسيرا للفهم و التأويل .

المحور الأول : الزواج والإنجاب

لقد حفزت جميع الشرائع الدينية منذ الأزل على ضرورة الزواج وأهميته في حياة الإنسان والمجتمع وتعززت قيمته بقدوم الإسلام الذي حث الفرد على تكوين أسرة، والأمثال الشعبية هي الأخرى إهتمت بهذا الأمر وشجعت على الإقبال عليه خاصة بالنسبة للإناث اللواتي بلغن فنجد:

"قال كلمة ومكملهاش وخير ملي كبر بنتو ومازوجهاش " ويشير المثل أن الرجل الذي لم يكمل كلمة قالها أحسن من رجل له بنت لم يزوجها وقد بلغت سنا معينا ويقال "بكر لحاجتك أقضيها وتصنت للفال بنتك قبل الصوم أعطيها قبل لا يكثر القيل والقال". "يشير الجزء الأول في هذا المثل إلى أهمية العمل المبكر، كما فيه إشارة إلى الإهتمام بالفأل في نفس الوقت لأنه يكون في الصباح الباكر. أما في الجزء الثاني فهو مكمل للقافية وله صلة بالتقاليد التي كانت تتمسك بها الأسر المسلمة حيث كانوا يزوجون الفتاة قبل أن تبلغ الصوم"[5].

"قالت موكة أنا خير من ثلاثة: اللي قال كلمة وما وفاها واللي دار قصعة وما ملاها واللي كبر بنتو وما عطاها " المقصود بالموكة في المخيلة الجمعية الجزائرية هي البومة، وهذه الأخيرة في الموروث الإجتماعي مصدر شؤم وبؤس، ومع ذلك تظل أحسن من هؤلاء الثلاثة الذين جاء ذكرهم في المثل أعلاه: الذي لايفي بوعوده والذي لا يتصدق وأحسن من الرجل الذي بلغت إبنته ولم ينجح في تزويجها أو سعى في ذلك، وهذا ما يدل على أهمية الزواج المبكر الذي يحظى به في وسط مجتمعنا المحافظ فضلا على الميزات والفضائل الحميدة التي أقرتها الشريعة الإسلامية، ودعمتها السنة النبوية الشريفة كالأمانة والصدق والكرم والإلتفات إلى الفقراء والمساكين بالتصدق عليهم، ومحاولة مساعدتهم ماديا ومعنويا.

ولعل إدراج الزواج المبكر وأهميته مع جملة هذه الفضائل، ليس وليد الصدفة وإنما يحاول من خلاله المثل تمرير رسالة معينة مفادها أن هذا الزواج لا يقل شأنا وأهمية على باقي الفضائل الجميلة والحميدة، ولا يخفى أن هذا النوع من الزواج كان منتشرا كثيرا في الماضي حيث كانت العائلات تزوج بناتها في سن مبكرة خوفا من العنوسة ولأن البنت كانت ماكثة في البيت ولا تزوال دراستها فكانوا يفضلون تزويجها .

"أتزوجي لا يقولو بايرة وولدي لا يقولو عاقرة" فهذه دعوة صريحة لتحفيز البنات على الزواج المبكر ودعوة للإنجاب وتكوين أسرة:

" المرا كي الفولة وين زرعتها تنبت "

" المرا بلا ولاد كالخيمة بلا وتاد"

حيث "لا يمكن للمرأة أن تتطلع إلى إدماج حقيقي إلا بفضل الطفل"[6] خاصة إن كان الطفل صبيا ذكرا فبوجوده تستطيع المراة الزوجة توثيق مكانتها وإستقرارها داخل بيتها وفي مجتمعها.

إن المرأة في الموروث الإجتماعي بحاجة دائما إلى الرجل في جميع أطوار حياتها سواء كانت أما أو إبنة أو زوجة وغيرها، فالبنت قبل زواجها تكون تابعة ماديا وإجتماعيا لوالدها وأخيها وعند زواجها تنتقل الولاية إلى الزوج "البنت اللي كبرت ماليها إلا ذكر ولا قبر" وكأن المرأة ليس لها أولويات أو تطلعات من غير الزواج .

"لمرا بلا حجاب كالدار بلا باب" وحجاب المرأة هنا هو زوجها كناية عن سترتها ودليل عفتها وشرفها وأن هذه الأخيرة لا تكتمل إنسانيتها ومروءتها إلا في حضور رجل (الزوج) يحمل على عاتقة مسؤولية البيت والزوجة والأولاد. "فالأسرة العربية عامة تساهم بدور كبير في وضع فواصل إجتماعية وثقافية للتمييز بين الذكور والإناث في تقسيم العمل والعلاقات بين الجنسين والأدوار المناسبة لكل منهما"[7].

فالمرأة تهيء منذ نعومة أظافرها على رعاية من حولها من خلال عملية التنشئة الإجتماعية، وتتعلم كيفية تقديم فروض الولاء والطاعة للأب والأخ والزوج وكل قائم على أمرها بسبب تبعيتها الإقتصادية والمادية للرجل، فضلا على إهتمامها بأناقتها وجمالها والإلتفات إلى مثل هذه الأمور في سبيل إسعاد الزوج والعمل على راحته وعدم تطلعه إلى غيرها من النساء، وأمام هذا الوضع لا يبقى للمرأة الوقت أو الرغبة أو حتى التفكير في الحصول على إمتيازات أخرى ماعدا الظفر بزوج يسترها في حين يلج الرجل عالم التنمية والإنتاج من بابه الواسع بعزم و ثبات.

وفي المقابل نجد بعض الأمثال تحتقر المرأة التي تقدم بها السن ولم تنجح في الإرتباط وتكوين أسرة وتنظر إليها نظرة إزدراء وتهكم:

"أعط للعمية تكحلك وأعط للبايرة تسحرلك" وتصفها بأبشع الصفات كالبايرة مثلها مثل الأرض البور غير صالحة للزراعة ، فهي أيضا لم تعد أهلا للإعتراف والتشريف وغير صالحة لشيء سوى للأعمال الذنيئة كالسحر مثلا.

" اللي بارت على سعدها دارت"

" بنات عمها يتزوجو وهي تزلف فالريسان "

" أخطب لبنتك وما تختطبش لولدك "

وكأنها مطالبة بضرورة الإرتباط والعمل على إخراج نفسها من دائرة الخطر سواء بمجهودها الفردي أو بمساعدة أهلها، حتى لا يؤول مصيرها للتجاهل أو الإحتقار.

إن طبيعة الزواج وأنواعه إختلفت في الأمثال الشعبية وإنقسمت إلى قسمين رئيسيين: أمثال تحث على الزواج الداخلي وأمثال تدعو إلى الزواج الخارجي، وهذه التناقضات الموجودة ما هي إلا ترجمة لكمّ الخبرات التي مر بها المجتمع الجزائري في عملية تطوره الإجتماعي بجميع مراحلها فنجد:

"أدي الطريق الصحيحة ولو طالت ودي بنت العم ولو بارت"

" اللي قاله فمها يلمه عمها "

وهذه الأمثال دليل واضح على تفضيل البعض في المجتمع الجزائري للزواج الداخلي (الإضوائي) لما لهذا النوع من الزواج في نظر هؤلاء من فوائد إذ أنه يزيد من أواصر الصلة ، ويحفظ النسب الأبوي مما يعمق الشعور بالقرابة، كما أن هذا الزواج يحافظ على روابط الأسرة وتماسكها. وعموما يتعمق الشعور بالقربى بين أعضاء الأجيال المتزامنة في البدنة الواحدة ويقوى هذا الشعور بالزواج بين أبناء العمومة[8]، وعليه فإنه يحفظ السلالة وإسم العائلة، وخوف العائلة عند الغريب زاد من تزكية هذا النوع من الزواج في العائلة الجزائرية، لأن إبن العم يحافظ على إبنة عمه، وعمها سيصونها ويعاملها كإبنة له، ومهما قالت أو فعلت فإن مكانتها لا تتأثر في بيت عمها. وعليه يطمئن أهلها عليها.

وفي الوقت ذاته نجد عائلات أخرى تفضل الزواج الخارجي (الإغترابي) تفاديا للمشاكل التي قد تقع بين العائلتين، وسهولة فسخ الرباط بين الزوجين إذا إستحالت الحياة بينهما ومن هذه الأمثال المعبرة عن هذا النوع من الزواج :

" دمك همك "

" إبن عمك همك"

" أتزوج المرا لبعيدة وأحرث الأرض القريبة "

" خود بنات الناس إيلا ما صبت الهنا تصيب الخلاص"

وهذه الأمثال تحث على الزواج الخارجي وتعبر عن الزواج الداخلي أنه يجلب المتاعب والهموم، وفي المثل الثاني تصوير عن ضرورة العمل وحرث الأرض القريبة ولكن يحث على الزواج بالأباعد،

وقد حث الإسلام على الزواج بالأباعد وخارج نطاق القرابة إذ دعا الرسول (ص) إلى ذلك بغرض تكوين علاقات جديدة قائمة على المصاهرة وتوسيع علاقات القرابة. إضافة إلى أن هذا النوع من الزواج هو وسيلة للتعارف بين العائلات والتبادل الثقافي ويعزز الرباط الإجتماعي .

المحور الثاني: أهمية الأم والبنت ومكانتهما في المجتمع

لقد إستطاعت بعض الأمثال الشعبية رسم صورة عن المرأة في جانبها الإيجابي خاصة حين يتعلق الحديث عن المرأة الأم حيث نجد:

" اللي راحتلو أمو راحتلو البنة في فمو "

" اللي عندو أمو يتوسد ركبة واللي ماعندوش يتوسد العتبة "

" ملي راحت المرحومة ما كليت كسرة مرقومة "

فهذه الأمثال التي تصور الحياة بدون وجود الأم على أنها حياة بائسة، تفتقر إلى الكثير من العطف والرحمة، لأن الأم هي ينبوع الحنان الذي ينهل منه الأبناء ما يحتاجونه، والحضن الدافئ الذي يمتص همومهم وغضبهم ومتاعبهم.

وهذه المكانة المعتبرة للأم أقرتها الشريعة السمحة، ودعت إليها في بعض الصور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. وبغياب الأم يصعب إيجاد بديل لها بنفس أحاسيسها وقدراتها على إحتواء الأبناء سواء كانوا صغارا أم كبارا .

أما البنت فهي الأخرى نالت نصيبها من الإهتمام من منظور الأمثال الشعبية حيث نجد:

" اللي يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها "

" اللي ماعندو بنات ماعرفوه باه مات"

" البنات عمارة الدار"

وهذا ما يدل على قيمة البنت في حياة أسرتها خاصة والديها، لما تقدمه من خدمات ومساعدات للأهل سواء كانت عازبة أو متزوجة، وأن البنات كثيرا ما يكن حنونات عطوفات على أوليائهن وعلى أطفالهن، فيسعين جاهدات لتقديم المساعدات بكل أشكالها.

المحور الثالث: العلاقات الإجتماعية

عند الحديث عن طبيعة العلاقات الإجتماعية الكامنة بين النساء على إختلاف أنواع هذه العلاقات:

علاقة الكنة بالحماة، علاقة الجارة بجارتها، المرأة وضرتها وغيرها . نلحظ الحقد الدفين والمتواصل بين هؤلاء النسوة حيث نجد:

" الضرة مرّة "

" السلفة حلفة "

" اللوسة سوسة "

" الضرابر يموتو متعانقات والسلايف يموتو متشابكات "

" أخطبها وراعي لقنوت أمها "

" أنا نحلف ومرتي تحلف ونسيبتي زايدة تتصحف "

" تندب وعينيها على نسيبتها "

" اللي نعطيه لجارتي نريده في حنجارتي "

" الكي بالنار ولا حماتي فالدار "

"يلا تفاهمت العجوز مع الكنة يدخل إبليس للجنة "

بالنظر إلى هذه النماذج من الأمثال سرعان ما تتضح طبيعة العلاقة التي تجمع كل إمرأة بأخرى والتي تمتاز بالعدوانية والإحتقار وأخذ كل الإحتياطات في سبيل إتقاء شر وسوء كل من تسول لها نفسها إيذاء غيرها، فمثل هؤلاء النساء ينظر إليهن المجتمع على أنهن منبع مشاكل والسبب وراء تأزم الكثير من العلاقات الإجتماعية.

حتى أن الكلمات أو المواصفات المستعملة في هذه الأمثال تحمل دلالات وأبعاد خطيرة: فالحلفة نبات شديد القساوة والجفاف، ومرّة من المرارة والسوسة حشرة صغيرة جدا ولكنها تأتي على الخشب فتأكله وتنخره من كل حدب وصوب وهذا للدلالة على أن مثل هؤلاء النسوة لا يأتي منهن خير ويصعب تحملهن أو العيش معهن بسلام.

المحور الرابع : تفضيل الزوجة

على جانب ما تزخر به الأمثال من ميزات وخصائص نجدها أيضا ذلك "الضمير الحي الذي يقوم بتوجيه الفرد وتعريفه بالقواعد السلوكية المسجلة التي يجب إتباعها وتميزها كذلك بين الحق والباطل والخطأ والصواب، وترغب دوما الأفراد فيما هو خير وتنهاهم عما هو مؤذ وبالتالي ينسجم الفرد مع قواعد السلوك الأنانية الغيرة ، الجبن، البطولة، الإيثار ....." [9] ونفس الأمر ينطبق على الأمثال المصاغة حول الزوج الذي يفضل زوجته على أهله خاصة والدته حيث نجد "مرتي اللي تحتي خير من أمي وأختي"، "يخلي باباه وأمه ويلصق بمرتو"، "الكنة تغسل وتزيد والعجوزة تصبر حتى للعيد فهذه دعوة صريحة لضرورة إلتفات الإبن إلى أهله خاصة والدته، فعليه أن ينفق عليها مثلما ينفق على زوجته، وأن يهتم بها بقدر إهتمامه بزوجته تفاديا للمشاكل وتأدبا ورفعة لمكانة الأم التي حملت ووضعت وربت وأفنت شبابها في سبيل أن يصبح فلذة كبدها رجلا تفتخر به. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الزوج الذي يسعى إلى طاعة والدته ويحاول إسعادها والعمل بنصائحها وكلامها، لا يترك حينها لزوجته فرصة أو مجالا للإستعلاء والإستكبار أو التمرد على والدته وأن هذا الإهتمام يولد لدى الزوجة (الكنة) إحترام هذه الأم وعدم التطاول عليها إن هي أرادت الحفاظ على زوجها وبيتها.

وفي بعض الأحيان يكون تفضيل الزوجة من باب الغيرة عليها من طرف زوجها الذي لا يقبل بأي شكل من الأشكال أن يهتم غيره من الرجال بزوجته وهنا تتجسد في داخله وتتحرك نخوة الرجولة والشهامة بل أبعد من ذلك إلى حد الإنتقام والتوعد حيث نجد:

"كل شيء تنساه غير إلي مدّ اللحم لمرتي وأنا بحذاه" ولنا في الإسلام ما يؤكد ويدعم ذلك حيث نهى الشرع أن يكون الرجل ذيوّثا أي غير غيور على أهله.

المحور الخامس: المرأة والنشاط

لقد ناشدت الأمثال الشعبية بقيمة المرأة النشيطة والعفيفة والنظيفة وترغب الشباب بضرورة الإرتباط بمثل هؤلاء النساء، في حين تنفر من النساء اللواتي يؤثرن الكسل والخمول على النشاط والعمل، حتى وإن كان يشهد لهن بالجمال والأناقة حيث نجد:

" إرم شعرك ورا وذنيك ووريني حرفة يديك "

" بيضة وعريضة ومن يدها مريضة"

" اللسان طويل والذراع قصير "

" خانها ذراعها وقالت سحروني "

" لا يغريك نوار الدفلى فالواد داير ضلايل ولا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف لفعايل"

"كنسي بيتك ما تعرفي مين يدوسه وأغسلي وجهك ما تعرفي مين يبوسه"

" لمرا اللي تطوف ما تغسل صوف "

فالمرأة التي تهمل واجباتها وتفرط في إلتزاماتها ومسؤولياتها وكذا أدوارها، لا يصبح بمقدورها فعل شيء آخر أو إستدراك ما فاتها من مسؤوليات وذلك بسبب إنشغالها بالخروج والتنزه الدائمين. فإهتمام المرأة بتقديم مسؤوليات البيت والزوج والأولاد والإعتناء بهم مطلوب في سبيل الظفر بما يصطلح على تسميته: بالرضى الإجتماعي والدعم والقبول من طرف أسرتها ومجتمعها وبذلك تحقق الإنتماء الإجتماعي.

المحور السادس : الحظ

مواضيع الأمثال غنية ومتنوعة يستحيل تطويقها في محاور أو مجالات معينة، بسبب تطرقها لمواضيع شتى تختزل في طياتها طبيعة تفكير المجتمعات والأفراد وممارستهم اليومية فحتى موضوع الحظ كان له نصيب من الإهتمام والذكر.

فهذه الأمثال تشير إلى أن المرأة تنسب أسباب إخفاقها في حياتها إلى الحظ، وكأنه المسؤول الأول عن عدم حصولها على التوفيق والصدارة في الأمور وكثيرا ما تستعمل كلمة "الزهر" للدلالة على أن أسباب الإخفاق وعدم النجاح تفوق قدرات المرء على التعديل أو إحجام هذا الفشل وصده حيث نجد:

" وحدا تحلب ووحدا تشد المحلب"

" زهر الزينة فالحمى وزهر الشينة فالسما"

" مين جات اليتيمة ترقص تهرس القلال "

" بنت السبع عانت وإستعانت، وبنت النذل فرشت ونامت "

" فالفرح منسية وفالقرح مدعية "

إن ضعف الوازع الديني مع ضعف شخصية المرأة وحتى عقلها لأن المرأة ناقصة دين وعقل وعدم ثقتها بنفسها تولد لديها الإحساس بأنها إنسانة غير محظوظة ينقصها الكثير لتحقيق النجاح وأنها حالة إستثنائية ومنفردة بسبب الحظ العاثر. وما الأمثال السابقة إلا دليل على هذا الحظ الذي تجعله المرأة ذرعا لها ومقياسا في الوقت ذاته تقيس به وتفاضل بينتها وبين غيرها من النساء.

المحور السابع: النساء وكيدهن

" لا تأمن فالليالي إذا صحاو ولا تأمن فالنساء إذا صلاو"

" المرا نار إذا غفلت تحرقك "

" لمرا لفعى "

" شابت وما تابت"

" ألف عصا ولا غلب أمرا"

" زوج نسا فالدار كي زوج عقارب فالدار "

فهذه المجموعة من الأمثال تدعم الخوف من المرأة وتدعو إلى الحذر منها وأخد الحيطة أثناء معاملتها، وهذه النظرة في حقيقة الأمر ليست وليدة العدم وإنما لها جذور تمتد إلى أعتق الحضارات، التي كانت تنظر إلى المرأة من زاوية ضيقة وتشدد عليها الخناق وتعتبرها كائنا من الدرجة الثانية لا قيمة له، وتعزو إليها أصابع الإتهام في جميع الأحوال والظروف لدرجة أن الأشياء الدونية في الحضارة الهندية كانت أحسن من المرأة مثل السم والأفاعي والوباء، كما إعتبرتها الديانة اليهودية أساس الخطيئة .... والمخيلة الجمعية الجزائرية بدورها جعلت صورة المرأة مقرونة بالشر والعداء وعبرت عنها بالأفعى لأنها تغدر من يؤمن لها، وأن شرها هذا قادر على أن يدفعها إلى الأسوء ودليل على قدرتها على الإيذاء.

"يلا حلف فيك الراجل بات راقد ويلا حلفت فيك لمرا بات قاعد"

وهذا تعبير على أن المرأة إنتقامها شديد. وقد بين الإسلام كيد المرأة ومكرها في قوله تعالى " إن كيدكن عظيم" [10]

المحور الثامن: التقسيم التقليدي للأدوار

هناك من الأمثال ما يدعو إلى تحديد الأدوار الخاصة بكل من الرجل والمرأة سلفا وبها يتجدد التقسيم التقليدي للأدوار بين الجنسين حيث نجد:

" الراجل ساقية ولمرا جابية "

" أقلب القدرة على فمها تخرج لبنت لمها"

" شوف العودة وشري بنتها"

" اللي مرته شحيحة ورقعته صحيحة يحرث عزلة تكفيه، واللي مرته مصدعة ورقعته مقطعة يحرث برّ رب العالمين ما يكفيه"

" إذا كان الراجل واد لمرا سدادة "

إن الفتاة تحاكي أمها وتأخذ عنها وتتعلم منها عدة أمور إستعدادا للحياة الزوجية، "فالفتاة تحاكي أمها في أدوارها بوصفها نموذجا مرجعيا لها، والإبن يحاكي والده، الفتاة تعد للحياة التقليدية والزوجية والإبن للحياة العامة"[11] والمسألة هنا طردية تتطلب من المرأة حسن التصرف والتدبير إن هي أرادت فعلا تكوين أسرة وإلتزمت بالإنفاق الرشيد والمتوازن .

إن المطلع على هذه الأمثال يجد تناقضات ومفارقات مختلفة، ففي الوقت الذي ترفع فيه هذه الأخيرة من قيمة المرأة ومكانتها وتسمو بها نحو درجة الإقتداء والتأسي (كقيمة الأم) نجد البعض منها يحط من هذه المكانة ويصل بها إلى حد الإستهزاء والإستنفار، خاصة الأمثال المتعلقة بالمرأة المطلقة أو المرأة والتي تعتبرها منبوذة وتجعلها مهمشة "لحم الهجالة مسوس" أو المرأة التي تأخر زواجها والتي تصفها بالعالة على المجتمع، وبعض الأمثال تعطي الأولوية للرجل وتجعل من المرأة في المرتبة الدنيا وأقل أهلية من الرجل وأن شخصيتها كثيرا ما لا تتحدد أو تكتمل إلا بوجود الرجل (أبا كان أو أخا أو زوجا...) وتغيب بغياب هذا الأخير، وهذا ما يجسد مفهوم الهيمنة الذكورية حتى في المخيال الشعبي، وفي الوقت الذي يكون فيه الإنجاب حبل نجاة للمرأة تتشبث به في تدرجها نحو الإستقرار والتكيف الإجتماعيين، يمكن أن يكون في الوقت ذاته معول هدم لهذا الإستقرار وتهديدا إجتماعيا يفرضه عليها الزوج والمجتمع إن هي أخفقت في إنجاب الذكور وإكتفت خلفتها بالبنات، لأن المخيال الإجتماعي ينسب إلى المرأة كل الأسباب التي تحول بينها وبين عدم زواجها أو طلاقها أو حتى عدم قدرتها على الإنجاب. فالتراكمات التاريخية هي التي ولدت مثل هذه الأمثال وجعلتها تتناقل من جيل لآخر.

الملاحظ أيضا من خلال دراسة موضوع الأمثال أنها حتى وإن لم تكن موجهة للمرأة بالدرجة الأولى فإنها تستعين بصيغة التأنيث للدلالة والتعبير على المعنى المراد الوصول إليه وهذا الأمر يتكرر في عدة أمثال حيث نجد على سبيل المثال لا الحصر:

" شرط العازب على الهجالة ولي عزبة وناخذك "

فالبرغم من أن هذا المثل يذكر للدلالة على صعوبة الوصول إلى أمر ما وإستحالته، إلا أنه أخذ من المرأة المطلقة (لسوء صورتها في المجتمع) مصدرا للإستدلال والإستشهاد .

ونجد أيضا "اللي طلباته الجارة للجارة يبرك ليها فالحنجارة "

فلقد تم الإستعانة بهذا المثل للترغيب في تمني الخير للجميع، وأن تمني الشر للغير والسعي إليه بكل الطرق لن يؤذي إلا صاحبه وهو يشبه إلى حد بعيد" من حفر حفرة لأخيه وقع فيها".

والقوة مجسدة كذلك "الزبد لزبيدة والزبل لعبيدة" أي أن الطيب من حظ زبيدة والرديء للخادمة .

وهذا ما يدل على حصة الأسد التي يأخذها الشخص الذي يتمتع بالقوة والنفوذ وكإحتجاج على عدم الإنصاف والعدل في القسمة بين الناس والجور على المظلوم الذي يفتقر إلى القوة والسند.

لقد ساهمت المرأة في صنع مثل هذه النماذج وهي في الوقت عينه المسؤولة عن نقل هذا التراث وإعادة إنتاجه من خلال الأنماط التربوية المستعملة في عملية تنشئة الأطفال " وفي الواقع ليست الأم فقط التي تقوم بهذا الإنتاج بل جميع مؤسسات التنشئة الإجتماعية بما فيها وسائل الإعلام الجماهيرية التي تعمل على إظهار المرأة في صورة معينة، لتبعدها عن جوانب العمل الخلاق و المبدع " [12] .

ننوه في الأخير أن موضوع البحث يظل مادة خصبة تستدعي البحث والتنقيب المستمرين ويحتاج ايضا إلى توسيع دائرة المعارف للكشف عن حيثياته وخصوصياته كيفما كان نوعها: الشكلية، الدلالية، الإيديولوجية، الإجتماعية وغيرها، كون الأمثال ثرية بأبعادها ومضمانيها المفتوحة التي يصعب حصرها في بعد واحد.

الهوامش:

1- جمانة طه ، موسوعة الروائع في الحكم و الأمثال ، الدار الوطنية الجديدة ودار المخيال ، ط2 ، بيروت ، 2002 ، ص13

2- محمد جابر الفياض ، الأمثال في القرآن الكريم ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1 ، أمريكا ، 1992 ، ص 88

3- محمد سعيدي ، التشاكل الإيقاعي و الدلالي في نص المثل الشعبي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط1 ، الجزائر ، 209 ، ص 63

4- نبيلة عبد الشكور ، المرأة في الأمثال الشعبية ، ماقيل عنها و ما قالته ، مؤسسة كنوز الحكمة ، ط1 ، الجزائر ، 2012 ، ص30

5- قادة بوتارن ، الأمثال الشعبية الجزائرية ، ترجمة عبد الرحمان حاج صالح ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2 ، الجزائر ، 2013 ، ص 30

6- علي أفرفار ، صورة المرأة بين المنظور الديني و الشعبي و العلماني ، دار الطليعة ، ط1 ، بيروت ، 1996 ، ص 57

7- مناد سميرة ، الزعامة النسوية في المخيال الإجتماعي ، دار الحامد للنشر و التوزيع ، ط1 ، عمان ، 2016 ، ص163

8- محمد عبده محجوب ، مقدمة في الإتجاه السوسيو – أنثربولوجي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، 1977 ، ص290

9- أحمد تيمور ، الأمثال العامية ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، بدون سنة ، ص66

10- الآية 28 من سورة يوسف .

11- عبد القادر عرابي ، المرأة العربية بين التقليد و التجديد ، مجلة المستقبل العربي ، عدد 136 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1990، ص 59

12- مناد سميرة ، مرجع سبق ذكره ، ص171